

سورة الحاقة : وهي نموذج للسورة المكية التي تستولى على القلوب بأهوالها ومشاهدها وأفكارها المتتابعة ، وفواصلها القصيرة

في بداية السورة نلاحظ هذه الرهبة من اسمها ، الحاقة ، لأن وقوعها حق يقيني

(الحاقة): هي إحقاق الحق، أو من حق الشيء، إذا ثبت ووجب، أي الساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المجيء، وفيها يتحقق الوعد الحق والوعد بالجزاء على الأعمال. وهي ستحق الحق،

فيعطى كل صاحب حق حقه: في الدنيا هلاك الأمم بسبب تكذيبها، وفي يوم القيامة إما الجنة أو النار.

وقال أحمد في " مسنده " : حدثنا أبو المغيرة ، قال : حدثنا صفوان ، قال : حدثنا شريح بن عبيد ، قال :

قال عمر : خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته قد سبقتني إلى المسجد ، فقامت خلفه (أي صليت خلفه) ، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن ، فقلت في نفسي :

هذا والله شاعر ، كما قالت قريش ، فقر (إنه لقول رسول كريم (40)) وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون [(41) الحاقة الآيات ، قال عمر : فوقع في قلبي الإسلام كل موقع .

بينت السورة بأن سبب هلاك الأمم السابقة هو تكذيبهم بالقارعة، وكذلك بسبب كفرهم وتكذيبهم المرسلين، وتكذيبهم رسالة ربهم إليهم وعصيائهم. ثم ذكرت من أنباء تلك القارعة التي كذبوا بها، ليعلموا أن الهلاك في الدنيا ليس النهاية. لأنه بقيت هناك حقوق لم ترد لأصحابها، فلا بد من الحاققة، (لأجل إحقاق الحق بين العباد)

لذا فالأمر المقبلون عليه عظيم وفيه حساب شديد ومصير خطير فإما الجنة وإما النار.

وتنزه الله العظيم عن أن يجعل الناس يواجهون هذا المصير الخطير بدون أن ينزل عليهم بيان فيه تفصيل،

والسورة بجملتها تلقي في الحس بكل قوة وعمق

إحساسا واحدا بمعنى واحد . . .

أن هذا الأمر ، أمر الدين والعقيدة ، جد خالص حازم جازم .

جد كله لا هزل فيه . ولا مجال فيه للهزل .

جد في الدنيا وجد في الآخرة ، وجد في ميزان الله وحسابه .

جد لا يحتمل التلفت عنه هنا أو هناك كثيرا ولا قليلا .

وأى تلفت عنه من أى أحد يستنزل غضب الله الصارم ،

وأخذه الحاسم . ولو كان الذى يتلفت عنه هو الرسول .

فالأمر أكبر من الرسول وأكبر من البشر . . .

إنه الحق . حق اليقين . من رب العالمين .

وقبل أن نقرأ المعاني المختلفة لكلمة الحاقّة لأبد من التنويه أن :

تعدد المعاني قد يدل ان الكلمة (الحاقّة) فيها كل ما قيل في تفسيرها

ونظرا للإعجاز البلاغي والبياني

فقد أعطى الله لفظ واحد لمعاني كثيرة تتحقق كلها في نفس اللفظ

الحاقّة: حقت لكل قوم أعمالهم أحقت لأقوام الجنة وأحقت لأقوام النار

وقال عمر بن واصل : معناها : يحق فيه جزاء الأعمال لكل طائفة

إن الله تعالى عظم حال يوم القيامة بما فيها من الشدة بإدخال الهاء فيها ، ومعناها اليوم الذي يلحق كل أحد فيه بعمله من خير أو شر .

والحاقّة اسم من أسماء القيامة

الساعة الحاقّة التي تحقّ فيها الأمور ، ويجب فيها الجزاء على الأعمال

وقد حقّ عليه الشيء إذا وجب

ويوم القيامة سمي بأسماء النوازل التي تكون من البلايا والشدائد ليقع بها التخويف والتهويل

وسميت القيامة حاقّة ؛ لأن فيها حواق الأمور ، أي : حقائقها .

ويقال : لأنها حقت على كل إنسان عمله من خير وشر ،

وتظهر جزاءه من الثواب والعقاب

وكذلك { الحاقّة } اسم فاعل ، من حق الشيء يحق

إذا كان صحيح الوجود ،

ومنه { حقت كلمة العذاب } [الزمر : ٧١] ،

والمراد به القيامة والبعث

وقال الأزهري : **حاقّته فحقّته أحقه : أي غالبته فغلبته .**

فالقيامة حاقّة لأنها تحقّق وتغالب كل محاق في دين الله بالباطل ،

أي كل مخاصم فتغلبه .

بمعنى : تَحَقُّ كُلِّ مُحَاقٍ فِي دِينِ اللَّهِ ، أَي : تَغْلِبُهُ
وفيها حقائق الأمور .

وقال بعض المفسرين :

{ الحاققة } مصدر كالعاقبة والعافية ، فكأنه قال : ذات الحق .

وقال ابن عباس: سميت القيامة حاققة ، لأنها تبدي حقائق الأشياء

وقيل إنها التي تحقق فيها الأمور أي تعرف على الحقيقة

من قولك لا أحق هذا أي لا أعرف حقيقته

تلخيص للمعنى :

الحاققة : وصف اسم فاعل بمعنى أنها تبدي حقائق الأشياء .

وقيل : إن الأمر يحق فيها فهي من باب «ليل نائم ، ونهار صائم» قاله الطبري .

وقيل : سميت حاققة ؛ لأنها تكون من غير شك لأنها حَقَّتْ فلا كاذبة لها .

وقيل : سميت القيامة بذلك ؛ لأنها أحقت لأقوام الجنة ، وأحقت لأقوام النار .

وقيل : لأنها تحقق كل محاق في دين الله أي : تغلبه ، من حاققته ، فحققتة أحقه أي : غلبته

وقيل : تحقق فيها الأمور أي تظهر حقيقتها وتشاهد بعد أن كانت أخباراً

وقيل : تحقق فيه الحقوق ولا يضاع الجزاء عليها ، قال تعالى { ولا تُظلمون فتية } [النساء :

٤٩]

وقيل : ويجوز أن تكون مصدراً بمعنى الحق ،

فيصح أن يكون وصفاً ليوم القيامة بأنه حق كقوله تعالى :

{ واقترب الوعد الحق } [الأنبياء : ٩٧]

وقيل : والحاققة بالأصل صفة لكل حادثة ثابتة ، ثم خرجت عن الوصف وصارت علماً على

يوم القيامة ، ومثلها الواقعة والقارعة أي تفرع القلوب بالأحوال .

{ الحاققة } : مبتدأ ، و(ما الحاققة) جملة الاستفهام خبر ،

والأصل : الحاققة ما هي ؟

فوضع الظاهر موضع المضمرة ؛ تفخيماً لشأنها ، وتهويلاً لأمرها

قال بعضهم : كل شيء في القرآن :

(وَمَا أَدْرَاكَ) فقد أدراه ، أي : أعلمه إياه ،

وكل شيء (وَمَا يُدْرِيكَ) فهو لم يعلمه إياه بعد .

{ وما أدراك ما الحاقة } ؟ أي لم تكن تدري ، فأدراك الله تعالى ، لأنه لم يكن خبر القيامة في علمك ولا علم قومك . لكن الله تعالى أطلعك عليه لأن قومك ٢ كانوا منكري البعث ، ولم يكن عندهم من خبره شيء

ويجب ألا ننسى أن :

تعدد المعاني قد يدل ان الكلمة (الحاقة) فيها كل ما قيل في تفسيرها

ونظرا للإعجاز البلاغي والبياني

فقد أعطى الله لفظ واحد لمعاني كثيرة تتحقق كلها في نفس اللفظ

أما ثمود فقوم صالح كانت منازلهم في الحجر فيما بين الشام والحجاز ، قاله محمد بن إسحاق : وهو وادي القرى ، وكانوا عرباً .
وأما عاد فقوم هود ، وكانت منازلهم بالأحقاف ، والأحقاف الرمل بين
عُمان إلى حضرموت واليمن كله ، وكانوا عرباً ذوي خلق وبسطة ،
ذكره محمد بن إسحاق .

كذبت ثمود قوم صالح ، وعاد قوم هود بالساعة التي تفرع قلوب العباد
فيها بهجومها عليهم . والقارعة أيضا : اسم من أسماء القيامة .

ولقد احتج الله تعالى على المشركين بما لقي من سلفهم من مكذبي
البعث ومنكري الرسل حين استأصلهم ، فلم يبق منهم سلف

ولا خلف عنهم خلف ليكون ذلك أبلغ في الإنذار

وذلك قوله تعالى : { كذبت ثمود وعاد بالقارعة } ذكرهم بما حل
بثمود وعاد وما أصابهم بتكذيبهم الرسل

وإن كان الخطاب في رسول الله صلى الله عليه وسلم

ففي ذكر نبي عاد وثمود ما يدعو الرسول إلى الصبر على أذاهم ،
ويكون ، له بعض التسلي بأنه يخبره أنك لست بأول رسول كذب ،
بل شركك الرسل من قبل ، وابتلوا بالتكذيب .

وابتدىء بثمود وعاد في الذكر من بين الأمم المكذبة

لأنهما أكثر الأمم المكذبة شهرة عند المشركين من أهل مكة

لأنهما من الأمم العربية ولأن ديارهما مجاورة شمالاً وجنوباً .

وما زالت أماكنهم معروفة باسم **قرى صالح** وتقع بين المملكة
الأردنية الهاشمية ، والمملكة العربية السعودية . وقيل سموا ب(ثمود)
لقلة المياه التي كانت في مساكنهم ، لأن التمد هو الماء القليل
والأحفاف جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل . . وينتهي نسب عاد
وثمود إلى نوح - عليه السلام - .

تفسير لغوي : { ثمود } اسم عربي معرفة ،

فإذا أريد به القبيلة لم ينصرف ، وإذا أريد به الحي انصرف ،

وأما { عاد } : فكونه على ثلاثة أحرف ساكن الوسط دفع في صدر
كل علة فهو مصروف .

{ كذبت ثمود و عاد بالقارعة }

ولم يقل : بها

(أي: لم يقل كذبت ثمود و عاد بالحاقة

ولكن قال كذبت ثمود و عاد بالقارعة)

والسبب، ليدل على أن معنى القرع حاصل في الحاقة ،

فيكون ذلك زيادة على وصف شدتها .

مؤثراً هذا المعنى اللغوي عن القارعة : والقرع : ضرب الشيء الصلب

والنقر عليه بشيء مثله

ولما ذكرها وفخمها أتبع ذلك بذكر من كذب بها ، وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيراً لأهل مكة ،
وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم .

وقوارع القرآن : الآيات التي يقرؤها الإنسان إذا فزع من الجن أو الإنس ، نحو آية الكرسي ،
كأنها تقرع الشيطان .

والنقطة الجديرة بالملاحظة هنا هي أنّ القرآن الكريم يعبر عن عقاب هؤلاء الأقوام المتمردين
ب (العذاب الشديد) ،

وقد كان العذاب الشديد بصور متعددة حيث عبّر عنه

ب (الطاغية) كما جاء في الآية مورد البحث

فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية (الطاغية : الصاعقة التي أهلكوا بها)

فأهلكوا بالصيحة التي قد تجاوزت مقادير الصياح وطغت عليها

معنى ذلك : فأهلكوا بالصيحة الطاغية .

ولأن ثمود طغت وتجاوزت الحد مع صالح ((بعقر الناقة))

وجاء في سورة الشمس (كذبت ثمود بطغواها) أي ثمود كذبت صالح بطغيان

(فكذبوه فعقروها)والعقر للناقة هو مجاوزة الحد هو طغيان من ثمود

مثل دعاء ودعوى (طغيان وطفوى)

لذلك كان عذاب ثمود مشابه لتكذيبهم وطغيانهم

الصاعقة الطاغية وسمى الصيحة طاغية ؛ لأنها زادت على المقدار الذي تطيقه الأسماع مثل { طغا الماء } أي عظم ارتفاعه وجاوز حده

عذابهم من جنس فعلهم { وجزاء سيئة سيئة مثلها } [الشورى : ٤٠]

وأخرى بال (رجفة) كما جاء في سورة الأعراف الآية (٧٨) وثالثة كان بصورة

(صاعقة) كما ورد في سورة فصلت الآية (١٣) ،

ورابعة كان على شكل (صيحة) كما جاء في سورة هود الآية (٦٧) .

وفي الحقيقة فإن جميع هذه التعبيرات ترجع إلى معنى واحد ،

لأن الصاعقة دائماً تكون مقرونة :

بصوت عظيم ،

ورجفة على النقطة التي تقع فيها ،

وعذاب طاغ عظيم .

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) [الحاقة : ٦]

وكانت عادة القرآن جارية بتقديم قصة عاد على ثمود

إلا أنه قلب هاهنا لأن قصة ثمود بنيت على غاية الاختصار

ومن البلاغة البيانية تقديم ما هو أكثر اختصاراً

ولعل حكمة التفصيل هنا لعذاب (قوم عاد) الذين عذبهم بالرياح الباردة

لأن الله سبحانه كرر نموذج بسيط لهذا العذاب على قريش والأحزاب

في الأيام والليالي الأخيرة من حصار قريش والأحزاب لرسول الله والمسلمين

في غزوة الخندق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكْتُ عَادَ بِالدَّبُورِ "

ريح صرصر :

هي الريح الباردة الشديدة البرد كقوله : { ريح فيها صرّ أصابت } الآية [آل عمران : ١١٧]
والصرّ البرد

والصرصر المكرر منه ، فوصفها أنها صر صر لدوامها وتكررها
والصرصر : الريح الشديدة الصوت .

والعاتية : لأنها عتت على خزانها بإذن الله فلم تطع الملائكة الخازنين للريح ولم يكن لهم
عليها سبيل ، وجاوزت المقدار فلم يعرفوا كم خرج منها
قال قبيصة بن نؤيب . لم يرسل الله ريحا إلا بقدر معلوم
غير الريح التي أرسلها على عاد ،

فإنها خرجت بغير قدر معلوم غضبا بغضب الله تعالى

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أرسل الله نسمة من ريح إلا بمكيال
ولا قطرة من مطر إلا بمكيال إلا يوم عاد ويوم نوح ،

فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه السبيل » ،

ثم قرأ : { إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة : ١١]

نحن نعرف أن هناك ملائكة خزنة ومفردها : خازن

والمالك الخازن : هو الحافظ المؤتمن على الشيء

فهناك خزنة جهنم في قوله تعالى: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ (الزمر: ٧١)

وهناك خزنة الجنة :

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73)

وهناك خزنة للماء وخزنة للرياح

وجمع الخازن : الخزان أو الخزنة

« وإن الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل »
ثم قرأ { بريح صرصر عاتية } ولعلها عبارة عن الشدة والإفراط فيها .
« العاتية » معناه : الشديدة المخالفة ،

فكانت الريح عتت على الخزان بخلافها لهم فلم تأتمر لأمرهم
وعتت على قوم عاد بشدتها

روى الزهري ، عن قبيصة بن ذؤيب أنه قال : ما يخرج من الريح شيء
إلا عليها خزان يعلمون قدرها ، وعددها ، وكيلها ،
حتى كانت التي أرسلت على عاد ، فاندفق منها ،
فهم لا يعلمون قدر غضب الله ، فذلك سميت عاتية

(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا)

فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ [الحاقة : ٧]

{ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ } أرسلها وسلطها . والتسخير : استعمال الشيء بالاقتماد
وقيل : التسخير التذليل ، أي نذلها ، فصيرها ، بحيث لا تمتنع عن المرور
عليهم في الوجه الذي جعلها عليهم ، وأطاعته في الوجه الذي أرسلها .
إنما أرسل الريح على أبدانهم خاصة ، لم تهلك شيئاً من مساكنهم كقوله
تعالى : { تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم }
[الأحقاف : ٢٥] والريح عملت على الأبدان لا على البنیان حيث الله
تعالى لم يأمرها بذلك ، والله أعلم .

والحسوم . المتوالية ،

مأخوذ من حسم الداء بمتابعة الكى عليه ،

فكانه تتابع الشر عليهم حتى استأصلهم .

وقيل : هو من القطع ،

فكانها حسمتهم حسوما أي : أذهبتهم وأفنتهم ، وقطعت دابرههم .

سَبَعَ لَيْالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ

بدأت بطلوع الشمس من أول يوم ،

وانقطعت مع غروب الشمس من آخر يوم

فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية

والخاوية : الخالية التي لا شئ في أجوافها .

وقوله (كأنهم أعجاز نخل خاوية) : جملة في موضع الحال من (صرعى)

أي : صرعوا أمثال نخل خاوية .

ويحتمل أن تكون الخالية بمعنى البالية لأنها إذا بليت النخل خلت أجوافها ،

فشبهوا بعد أن أهلكوا بالنخيل البالية

(فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ) [الحاقة : ٨]

لم يبق لهم نسل يذكرون بهم ، بل أهلكوا بأجمعهم ،

وانقطع عنهم الذكر إلا بالسوء ، وإلا كان يرى لهم باقية .

فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا ، فاحتملتهم الرياح فألقتهم في البحر ذلك قوله

عز وجل : " فهل ترى لهم من باقية " ، وقوله عز وجل : " فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم

" [الأحقاف : ٢٥]

ففيه أنهم استأصلوا ، وعم العذاب الكبير والصغير ،

يخوف أهل مكة بما يخبرهم عما فعل بأولئك .

(وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ) [الحاقة : ٩]

ومن قَبْلَهُ : أراد الأمم العاصين قبله .

{ والمؤتفكات } قال : هم قوم لوط : انتفكت (انقلبت) بهم أرضوهم

«المؤتفكات» جمع (مؤتفكة) من مادة (انتفاك) بمعنى الانقلاب

{ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ } ، وهي قريات قوم لوط الثلاث . وقال

بعضهم : خمس مدائن خسف بها كلها قوم لوط

الذين انتفكت عليهم مدائنهم إذ أهلكوا أي : انقلبت عليهم

والقرى التي قلبت وصرفت عاليها سافلها فانتفكت بأهلها

أي انقلبت بأهلها فهي مؤتفكة

بالخاطئة :

يعنى بالخطأ العظيم ، أي : بالذنب العظيم .

وكانت خطيئتها : إتيانها الذكران في أدبارهم

وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى قال : أهواها من السماء : رمى بها من السماء أوحى

الله إلى جبريل عليه السلام ، فاقتلعها من الأرض ، ربضها ومدينتها ،

ثم هوى بها إلى السماء ثم قلبهم إلى الأرض ، ثم أتبعهم الصخر

حجارة

المؤتفك الذي يأتفك (ينقلب) :

من الصدق إلى الكذب ومن الحق إلى الباطل ومن العدل إلى الظلم

وفي قوم لوط كان الذكر (ينقلب) من الفطرة إتيان النساء إلى عدم الفطرة إتيان الرجال .

وفي عطف هؤلاء المؤتفكة على ثمود وعاد في سياق ذكر التكذيب بالقارعة
إيماء إلى أنهم تشابهوا في التكذيب بالقارعة

كما تشابهوا في المجيء بالخاطئة وعصيان رسل ربهم ،

فحصل في الكلام احتباك .

والمراد بفرعون فرعون الذي أرسل إليه موسى عليه السلام وهو (منفتح الثاني) . وإنما أسند
الخطء إليه لأن موسى أرسل إليه ليطلق بني إسرائيل من العبودية

قال تعالى : { **أذهب إلى فرعون إنه طغى** } [النازعات : ١٧]

فهو المؤاخذ بهذا العصيان

وتبعه القبط (هذا اسم أهل مصر غير آل فرعون) امتثالاً لأمره وكذبوا موسى وأعرضوا عن دعوة
موسى .

تنويه : لا يقال على كل أهل مصر آل فرعون ولكن يقال عليهم القبط

وكان طغيان فرعون (تجاوز الحد) في إدعائه الإلوهية

وكذلك طغيانه على بني إسرائيل في قتل الأطفال

(**فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً**) [الحاقة : ١٠]

وقوله : { **فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً** } .

أخذة زائدة ، كما تقول :

أربيت إذا أخذ أكثر مما أعطاه من الذهب والفضة ،

أربيت : إذا أخذ أكثر مما أعطى من الربا ربا عليهم : زاد عليهم

أو أن أخذتهم كانت زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار

كما أن أفعالهم كانت زائدة في القبح على أفعال سائر الكفار

(الثاني) أن عقوبة آل فرعون في الدنيا كانت متصلة بعذاب الآخرة ، لقوله :

{ **أغرقوا فأدخلوا نارا** } وعقوبة الآخرة أشد من عقوبة الدنيا ، فتلك العقوبة كأنها كانت

تنمو وتربو .

والأخذ : مستعمل في الإهلاك ، وقد تقدم عند قوله تعالى :

{ أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون } في سورة الأنعام (٤٤)

وفي مواضع أخرى .

{ **أخذة** } : واحدة من الأخذ ، فيراد بها أخذ فرعون وقومه بالغرق ، كما قال تعالى : { فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر } [القمر : ٤٢] ،

وإذا أعيد ضمير الغائب إلى { فرعون ومن قبله والمؤتفكات } كان أفراد الأخذة كأفراد { رسول ربهم ، { أي أخذ العذاب كل أمة منهم أخذة .

والرابية : اسم فاعل من ربا يربو إذا زاد فلما صيغ منه وزن فاعلة ، قلبت الواو ياء لوقوعها متحركة إثر كسرة

والمراد بالأخذة الرابية : إهلاك الاستئصال ، أي ليس في إهلاكهم إبقاء قليل منهم .

وربت وزادت على غيرها من الأخذات،

وهي العرق (القوم نوح وفرعون وجنوده) وقب المداين (القوم لوط)

الواقع أن أي نوع من العقوبة فيه آية على القدرة ، وفيه تنكيل بمن وقع بهم ، ولكن تخصيص كل أمة بما وقع عليها يثير تساؤلاً ،

ولعل مما يشير إليه القرآن إشارة خفيفة هو الآتي :

أما فرعون فقد كان يقول :

{ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي } [الزخرف : ٥١] ، فلما كان يتناول بها جعل الله هلاكه فيها (عرق) أي في جنسها .

وأما قوم نوح فلما يبس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وأصبحوا لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، فلزم تطهير الأرض منهم ، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان .

وأما ثمود فأخذوا بالصيحة الطاغية ، لأنهم نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فلما كان نداؤهم صاحبهم سبباً في عقر الناقة كان هلاكهم بالصيحة الطاغية .

وأما عاد فلطغيانهم بقوتهم ، كما قال تعالى فيهم : { ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات

العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد } [الفجر : ٦ - ٨] ، وسواء عماد بيوتهم وقصورهم ، فهو كناية عن طول أجسامهم ووفرة أموالهم وتوافر القوة عندهم ، فأخذوا بالريح وهو أرق وألطف ما يكون ، مما لم يكونوا يتوقعون منه أية مضرة ولا شدة .

وكذلك جيش أبرهة لما جاء مدل بعدده وعدته ، وجاء معه بالفيل أقوى الحيوانات ، سلط الله عليه أضعف المخلوقات والطيور { وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل }

أما قوم لوط فلكونهم قلبوا الأوضاع باتيان الذكور دون الإناث ، فكان الجزاء من جنس العمل ، قلب الله عليهم قراهم . والعلم عند الله تعالى ولا شك أن في ذلك كله تخويف لقريش

مصدر هذا الجزء من التفسير : الشنقيطي - أضواء البيان - ١٣٩٣ هـ

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) [الحاقة : ١١]

وذلك يوم أغرق الله فيه قوم نوح { حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } يعني نوحا ومن معه وأولاده الثلاثة الذين الناس من ذريتهم : سام وحام ويافت . والجارية السفينة .

(نَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُنْثَىٰ) [الحاقة : ١٢]

{ نَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً } أي : فتذكرون أن جميع من في الأرض غرقوا غير أهل السفينة . قال عز وجل : { وَتَعِيهَا أُنْثَىٰ وَاعِيَةٌ } أي : حافظة . يعني بذلك التذكرة . وهي أذن المؤمن سمع التذكرة فوعاها بقلبه

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ) [الحاقة : ١٣]

فإذا نُفِخَ فِي الصُّورِ إسرافيل نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وهي النفخة الأولى ، التي يصعق لها من في السموات ومن في الارض { الصور } : القرن الذي ينفخ فيه

نفخة الفزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور ، وهي هذه النفخة . وقد أكدها هاهنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ، ولا يحتاج إلى تكرار وتأکید .

فإن قيل : لم قال بعد ذلك { يومئذ تعرضون } والعرض إنما يكون عند النفخة الثانية ؟

قلنا : جعل اليوم اسما للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان ، والصعقة والنشور ،

والوقوف والحساب ، فلذلك قال : { يومئذ تعرضون } كما تقول : جنته عام كذا ، وإنما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته .

نفختان فقط ونفخة الفزع نفخة الصعق لأن الأمرين متلازمان أي فزعوا فزعاً ماتوا عنه وهذا القول صححه القرطبي واستدل بأنه استثنى في نفخة الفزع كما استثنى في نفخة الصعق فدل على أنهما واحد

(وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) [الحاقة : ١٤]

اقرأ تلك الآية (السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) الأنبياء ٣٠

نجد عندما يكون شيئين متلاصقين كأنهما شيء واحد

يضيف الله لهما حرفان (تا) معنى ذلك أن الجبال والأرض متداخلتين

ولكن الأرض عليها مرتفعات أخرى غير الجبال ولكن تلك المرتفعات أقل ارتفاعاً من الجبال

ويوم القيامة ستكون الأرض كما قدر لها الله ان تكون الأرض كلها مستوية

حيث يتم دك الأرض لتصبح مستوية لا يوجد بها ارتفاعات

لذلك عبر الله عز وجل ان الاستواء

سيحدث للأرض ومناطق الجبال كونها متداخلة مع مكونات الأرض

وخص الجبال بالدك

لكي لا يعتقد المستمع للقرآن أن مرتفعات الأرض ستسوى وتبقى الجبال لعظم حجمها

عن الزهري في قوله تعالى : { فدكتا دكة واحدة } قال : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : لي الملك أين ملوك الأرض

{ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً }

{ فدكتا } بسطتا بسطة واحدة ، واندك سنام البعير إذا انفرش في ظهره

أصل معنى (دك) هو (الدق والتخريب) ولازم ذلك الاستواء

الأرض غير المستوية تحتاج إلى الدك حتى تستوي ،

لذا استعمل هذا المصطلح في الكثير من الموارد بمعنى «الدق الشديد

وتوصيف الدكة بالواحدة للإشارة إلى سرعة تفتتها بحيث لا يفتقر إلى دكة ثانية

أي : فتتت الجبال واضمحت وخلطت بالأرض ونسفت على الأرض فكان الجميع قاعا
صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمّتا .

(فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) [الحاقة : ١٥]

{ فيومئذ وقعت الواقعة } أي وقعت الصيحة الآخرة ، يعني النفخة الآخرة

الآيات ١٣ و ١٤ و ١٥ وقوله تعالى :

{ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة }

{ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة }

{ فيومئذ وقعت الواقعة }

فكأنهم سألوا متى تكون الواقعة والحاقة والقارعة ؟

فأخبر عن ذلك بقوله : { فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة }

{ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة }

{ فيومئذ وقعت الواقعة } أي : قامت القيامة

(وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ) [الحاقة : ١٦]

كقوله عز وجل : { وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا } [النبأ : ١٩]

يعني سقفاها . والواهية الضعيفة ، ليست بالشديدة كما كانت .

حدثنا أبو أسامة ، عن الأجلح ، قال : سمعت الضحاك بن مزاحم ، قال : «إذا كان

يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا بأهلها ، ونزل من فيها من الملائكة ، فأحاطوا

بالأرض ومن عليها ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، ثم الخامسة ، ثم

السادسة ، ثم السابعة ، فصفوا صفا دون صف ثم نزل الملك الأعلى على مجنّبه

اليسرى جهنم ، فإذا رآها أهل الأرض ندّوا ، فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا

وجدوا سبعة صفوف من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك

قوله الله : إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تؤلون مذبرين ما لكم من الله من عاصم

وذلك قوله : وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ، وقوله : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ وَذَلِكَ قَوْلُهُ : وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا «

وانشقت السماء { يعني : انفرجت السماء بنزول الملائكة .

{ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ } يعني : ضعيفة منشقة متمزقة

قال الضحاك : إذا كان يوم القيامة أمر الله جل ثناؤه

السماء بأهلها ونزل من فيها من الملائكة فأحاطوا بالأرض

ومن عليها ثم الثانية ثم [الثالثة] إلى السابعة ،

فصفوا صفا بين يدي صف

ثم نزل الملك الأعلى على مجنبيه جهنم ،

فإذا رآها أهل الأرض ندّوا فلا يأتون قطرا (ناحية أو جانبا)

من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فيه ،

فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك قوله :

(إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم) .

نَدَّ فُلَانٌ : إذا هَرَبَ ومنها يوم التناد يوم محاولة الهروب

ولكن لا عاصم اين يهربون وأين يختبئون

وكل الأرض والجبال مستوية ليس هناك شيء للاختباء ورائه

(يَوْمَ تُولُّونَ مُدْبِرِينَ) لِأَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا زَفِيرَ النَّارِ يَنْدُونُ هَارِبِينَ، فَلَا يَأْتُونَ قَطْرًا مِنْ الْأَقْطَارِ إِلَّا وَجَدُوا مَلَائِكَةً صُفُوفًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ.

وكيف تستطيع الهرب وقد جاء ربك والملائكة صفوف مع الله

وذلك قوله : (وجاء ربك والملك صفا صفا) .

وهو قوله : (يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات

والارض فانفذوا لا تنفذون إلا بسطان) (أي) بحجة

(وانشقت السماء) أي انفرج بعضها من بعض

فهي يومئذ واهية) أي شديدة الضعف يقال : وهى الشئ يهي وهيا ، فهو واه أي لا يستمسك لضعفه بنقض بنيته .

وقيل : هو تغير السماء بعد صلابتها بمنزلة الصوف في الوهي والضعف

{ وَاهِيَةٌ } مسترخية ساقطة القوة جداً بعد ما كانت محكمة مستمسكة

{ وَالْمَلِكُ } اسم الجنس يريد به الملائكة

وانشقت السماء : مطاوعتها لفعل الشق لنزول الملائكة .

والشق : فتح منافذ في محيطها ، قال تعالى : { ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل

الملائكة تنزيلاً الْمَلِكُ يَوْمئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَانِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا } [

الفرقان : ٢٥ ، ٢٦] .

{ فهي يومئذ واهية } أي مسترخية ساقطة القوة بعدما كانت محكمة شديدة

والوهي : قريب من الوهن ،

والأكثر أن الوهي يوصف به الأشياء غير العاقلة ،

والوهن يوصف به الناس .

{ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية (١٦) }

تفطرت السماء وامّاعت ؛ كما جاء في الآية الكريمة :

{ يوم تكون السماء كالمهل } فتهاوت وتداعت للسقوط ،

وليس يلزم من الإخبار عن السماء بأنها تتشق أو تذوب أنها من الأجسام الصلبة

. فقد وصف الله تبارك اسمه البحر بالانفلاق

مع أنه لم يخلق صلباً { فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق .

(وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) [الحاقة : ١٧]

وقوله تعالى : { وَالْمَلِكُ } أي والملائكة

{ عَلَى أَرْجَائِهَا } معناه على جوانبها . وقيل : نواحيها وأطرافها

وواحدها " الرَّجَا " وهو مقصور

والضمير ها (أَرْجَأَهَا) **يعود على السماء الدنيا**

والمَلَكُ على أَرْجَائِهَا يقول :

والملك على حافات السماء حين تشقق

ويقال : على شقة ، كل شيء تشقق عنه .

وقوله تعالى : { وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ }

معناه ثمانية من الملائكة . ويقال : ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا الله تعالى .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الله أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة

العرش رجلاه في الأرض السفلى وعلى قرنه العرش بين شحمة أذنيه إلى عاتقه

خفقان الطائر سبعمائة سنة يقول ذلك الملك سبحان الله حيث كنت » .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله : وَيَحْمِلُ

عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ قال : ثمانية أملاك ، وقال : قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : «يَحْمِلُهُ الْيَوْمَ أَرْبَعَةٌ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَمَانِيَةٌ» ،

قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن حملة العرش :

«لَمَّا خَلَقَهُمُ اللَّهُ قَالَ : تَدْرُونَ لِمَ خَلَقْتُكُمْ ؟

قَالُوا : خَلَقْتَنَا رَبَّنَا لِمَا تَشَاءُ ،

قَالَ لَهُمْ : تَحْمِلُونَ عَرْشِي ،

ثُمَّ قَالَ : سَلُونِي مِنَ الْقُوَّةِ مَا شِئْتُمْ أَجْعَلُهَا فِيكُمْ ،

فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : قَدْ كَانَ عَرْشُ رَبَّنَا عَلَى الْمَاءِ ،

فَاجْعَلْ فِي قُوَّةِ الْمَاءِ ، قَالَ : قَدْ جَعَلْتُ فِيكَ قُوَّةَ الْمَاءِ

وقال آخِرُ : اجْعَلْ فِي قُوَّةِ السَّمَوَاتِ ، قَالَ : قَدْ جَعَلْتُ فِيكَ قُوَّةَ السَّمَوَاتِ
 وقال آخِرُ : اجْعَلْ فِي قُوَّةِ الْأَرْضِ ، قَالَ : قَدْ جَعَلْتُ فِيكَ قُوَّةَ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ
 وقال آخِرُ : اجْعَلْ فِي قُوَّةِ الرِّيحِ ، قَالَ : قَدْ جَعَلْتُ فِيكَ قُوَّةَ الرِّيحِ
 ثُمَّ قَالَ : احمِلُوا ، فَوَضَعُوا الْعَرْشَ عَلَى كَوَاهِلِهِمْ ،
 فَلَمْ يَزُولُوا قَالَ : فَجَاءَ عِلْمُ آخِرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ عِلْمُهُمُ الَّذِي سَأَلُوهُ الْقُوَّةَ ،
 فَقَالَ لَهُمْ : قُولُوا : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ،
 فَقَالُوا : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ،
فَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِمْ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ مَا لَمْ يَبْلُغُهُ عِلْمُهُمْ ، فَحَمَلُوا .

وقوله تعالى : { ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية } فيحتمل أن يكون
 الملائكة بالنفخة الأولى يصعقون إلا الثمانية الذين يحملون العرش كما قال :
 { ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله } [الزمر : ٦٨]
 فيكون هؤلاء الثمانية الذين استثنوا ، فلا يصعقون ، فهم يحملون
 العرش ، فتكون أمكنتهم على أرجاء السماوات ،
 وهو قوله : { والملك على أرجائها } .
 { وَالْمَلِكُ } يعني : الملائكة ، فهو اسم جنس
 { والملك } لم يرد به ملكا واحدا ، بل أراد الجنس والجمع .
 { عَلَى أَرْجَائِهَا } أي : على جوانبها .

قال الزجاج : ورجاء كل شيء : ناحيته ، والجمع : أرجاء .
 وأكثر المفسرين على أن المشار إليها السماء .
 قال الضحاك :

إذا انشقت السماء كانت الملائكة على حافة الشقوق التي انشقت في السماء حتى يأمرهم الله تعالى ، فينزلون إلى الأرض ، فيحيطون بها ، ومن عليها .

وروي عن سعيد بن جبير أنه قال : على أرجاء الدنيا .
قوله تعالى : { وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ } فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : فوق رؤوسهم ، أي : العرش على رؤوس الحملة ، قاله مقاتل .
والثاني : فوق الذين على أرجائها ،

أي : أن حملة العرش فوق الملائكة الذين هم على أرجائها .
والثالث : أنهم فوق أهل القيامة ، حكاهما الماوردي .

والمعنى أن السماء إذا انشقت
عدلت الملائكة عن مواضع الشق إلى جوانب السماء ،
فإن قيل : الملائكة يموتون في الصعقة الأولى ،
لقوله : { فصعق من في السماوات ومن في الأرض }

فكيف يقال : إنهم يقفون على أرجاء السماء ؟

قلنا : الجواب من وجهين :

(الأول) أنهم يقفون على أرجاء السماء ثم يموتون

(الثاني) أن المراد الذين استثناهم الله في قوله : { إلا من شاء الله } .

{ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا } يقول : على ما استدق من السماء ، ينظرون إلى أهل الأرض .

وقال سعيد بن جبير: إذا صارت السماء قطعاً ،

تقف الملائكة على تلك القطع التي ليست متشقة في أنفسها .

ملخص :

{ والملك على أَرْجَائِهَا } أي جنس الملك مثل جنس البشر
على أطرافها وجوانبها ، وهي جمع رجي مقصور
والمعنى : أنها لما تشققت السماء ، وهي مساكن الملائكة
لجئوا إلى أطرافها .

ونخلص من كل هذه الغيبيات التي لا علم لنا بها ، ولم يكلفنا الله من علمها إلا ما
قص علينا . نخلص من مفردات هذه الغيبيات إلى الظل الجليل الذي تخلعه على
الموقف . وهو المطلوب منا أن تستشعره ضمائرنا . وهو المقصود من ذكر هذه
الأحداث ليشعر القلب البشري بالجلال والرهبة والخشوع ، في ذلك اليوم العظيم ،
وفي ذلك الموقف الجليل :

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) [الحاقة : ١٨]
أي تعرضون على أعمالكم ، فلا تخفى عليكم خافية ،

أي تظهر لكم في ذلك اليوم ، وتصير بارزة في ذلك اليوم كما قال
تعالى : { يوم تبلى السرائر } [الطارق : ٩]

أي تظهر لهم سرايرهم ، حتى يعرفوها ، ولا يخفى عليهم شيء منها
وجائز أن يكون قوله : { لا تخفى منكم خافية } أي على الله تعالى .
ولكن كل من ادعى إخفاء شيء من أمره على الله

[وظن أن الله تعالى] لا يطلع عليه ، فسيعلم في ذلك اليوم
أنه لا تخفى عليه خافية ، وهو كقوله تعالى :

{ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار } [غافر : ١٦]

ليس فيه أن الملك كان لغيره .

ولكن بعض الناس كانوا يدعون الإشراف في الملك في الدنيا ،
فيتركون في ذلك اليوم دعواهم ، ويتيقنون أنه هو المنفرد بالملك ،
وعلى ذلك قوله تعالى : { وبرزوا لله جميعا } [إبراهيم : ٢١] .
ولم يكونوا بمختلفين عنه قبل ذلك ،

بل كانوا له في كل وقت بارزين . ولكن من أنكر ادعاء الإخفاء في
الدنيا يدع في ذلك اليوم ، ويقر بالبروز ، والله المستعان .

ثم روي في الخبر " أن العرضات ثلاث : عرضتان فيهما خصومات
ومعاذير " أي يختصمون ، ويتنازعون ،

فإذا ظهر ذلك جعلوا يعتذرون ،

ويسألون ربهم العفو والصفح عن خصومهم ، "

والعرضة الثالثة عند تطاير الصحف " [الترمذي : ٢٤٢٥] .

ومعنى قوله : { **تُعرضون** } ، أي يعرض الخلق بعضهم على بعض حتى لا يخفى على أحد خصمه ،

أو تعرض أعمالهم حتى يذكر [كل] واحد صنيعة ، وكل خصم خصومته ، فكأنهم قد نسوا ذلك من كثرة الفرع وشدة الأهوال .

لكن الله تعالى يطلعهم على ذلك حتى يذكروا ذلك ، والله أعلم .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، أما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف من الأيدي فأخذ بيمينه وأخذ بشماله " .

{ لا تخفى منكم خافيةٌ } فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : لا يخفى المؤمن من الكافر ، ولا البر من الفاجر ، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص .

الثاني : لا تستتر منكم عورة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يحشر الناس حفاة عراة " .

الثالث : أن خافية بمعنى خفية كانوا يخفونها من أعمالهم

وكان عمر بن الخطاب يقول : حاسبوا أنفسكم قل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر ، يومئذ لا تخفى منكم خافية .

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) [الحاقة : ١٨]

قوله تعالى : { يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ } العرض عبارة عن المحاسبة والمساءلة ، شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله ، ونظيره قوله : { وعرضوا على ربك صفا }

وروى : «أن في القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ ، وأما الثالثة ففيها تنثر الكتب فيأخذ السعيد كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله » .

ثم قال : { لا تخفى منكم خافية } وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : في الآية وجهان

(الأول) تقرير الآية : تعرضون لا يخفى أمركم

فإنه عالم بكل شيء ، ولا يخفى عليه منكم خافية ،

ونظيره قوله : { لا يخفى على الله منهم شيء }

فيكون الغرض منه المبالغة في التهديد ،

يعنى تعرضون على من لا يخفى عليه شيء أصلا

(الوجه الثاني) المراد لا يخفى يوم القيامة ما كان مخفيا منكم في

الدنيا ، فإنه تظهر أحوال المؤمنين فيتكامل بذلك سرورهم ،

وتظهر أحوال أهل العذاب فيظهر بذلك حزنهم وفضيحتهم ،

وهو المراد من قوله:

{ يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر }

وفي هذا أعظم الزجر والوعيد وهو خوف الفضيحة .

المسألة الثانية : قراءة العامة { لا تخفى } بالتاء المنقطة من فوقها ، واختار أبو عبيدة الياء وهي قراءة حمزة ، والكسائي قال :
لأن الياء تجوز للذكر والأنثى والتاء لا تجوز إلا للأنثى ،
وهاهنا يجوز إسناد الفعل إلى المذكر

وقد يكون المراد بالخافية شيء ذو خفاء (وهي العورة) .
وأيضاً فقد وقع الفصل هاهنا بين الاسم والفعل بقوله : منكم .

يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) . .
فالكل مكشوف . مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ،
مكشوف الضمير ، مكشوف العمل ، مكشوف المصير .
وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار ،
وتتعرى النفوس تعري الأجساد ، وتبرز الغيوب بروز الشهود . .
ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره ،
ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه !
وما أقسى الفضيحة على الملاً . وما أخزأها على عيون الجموع !
أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن .
ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور ،
وهو مخدوع بستور الأرض .
فها هو ذا يشعر به كاملاً وهو مجرد في يوم القيامة .

وكل شيء بارز في الكون كله .

الأرض مدكوكة مسواة

لا تحجب شيئاً وراء نتوء ولا بروز .

والسمااء متشقة واهية لا تحجب وراءها شيئاً ،

والأجسام معراة لا يسترها شيء ،

والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر !

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْرَبُ) [الحاقة : ١٩]

عن معمر عن قتادة قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم أحسبه قال :
سأله بعض أزواجه هل يذكر الناس أهلهم يوم القيامة ؟

قال : أما في ثلاثة مواطن فلا ،

عند الميزان وعند الصراط وعند الصحف إذا تطايرت في الأيدي [

قال عز وجل : { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ } فيعلم أنه من أهل الجنة
{ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْرَبُ } وذلك حين يأذن الله له فيقرأ كتابه .

حدثنا موسى بن عبدة ، أخبرني عبد الله بن عبد الله بن حنظلة غسيل
الملائكة قال : إن الله يقف عبده يوم القيامة فيبدي سيئاته في ظهر
صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم ، أي رب فيقول
له : إني لم أفضحك به ، وإني قد غفرت لك . فيقول عند ذلك :

{ هاؤم اقرؤوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه } حين نجا من
فضيحة يوم القيامة

فإذا كان الرجل في الخير رأسا يدعو إليه ، ويأمر به ويكثر عليه

تبعه ، دعي باسمه واسم أبيه فيتقدم ؛ حتى إذا دنا أخرج له كتاب

أبيض بخط أبيض في باطنه السيئات ، وفي ظاهره الحسنات ،

فبيداً بالسيئات فيقرؤها فيشفق ويتغير لونه ، فإذا بلغ آخر الكتاب

وجد فيه هذه سيئاتك قد غفرت لك فيفرح ثم يقلب كتابه ،

فيقرأ حسناته قلا يزداد إلا فرحاً ؛ حتى إذا بلغ آخر الكتاب

وجد فيه هذه حسناتك ، وقد ضوعفت لك فيبيض وجهه ،

ويؤتى بتاج فيوضع على رأسه ، ويكسى حلتين ،

ويحلى كل مفصل منه ، ويطول ستين ذراعاً ، وهي قامة آدم

ويقال : انطلق إلى أصحابك فبشرهم وأخبرهم أن لكل إنسان منهم

مثل هذا ، فإذا أدبر قال : { هاؤم } أي : هاكم { اقرءوا كتابيه } (١٩)

(إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ) [الحاقة : ٢٠]

أي : قد كان لدي يقين في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة ،

كما قال : { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ } [البقرة : ٤٦]

الآية ٢٠ وقوله تعالى : { **إني ظننت أني ملاق حسابيه** }

فإن حملته في التفسير على **حقيقة الظن** سيؤدي ذلك إلى تأويلات :
التأويل الأول: أن المؤمن لسان حاله يقول : **أني ظننت في الدنيا**

أني ألقى الحساب الشديد في ما سبق من سيئاتي ، وأأخذ بها ،

وظننت الساعة ألا أنجو من ذنوبي لفرع هذا اليوم ،

فوجدت سيئاتي قد غفرت ، وخطاياي كفرت عني ،

فيكون قوله منه هذا شكرا لله تعالى وإظهارا لمننه .

بمعنى كان المؤمن يظن ظنا أن السيئات التي فعلها سيلاقي بسببها

عقاب وعندما جاء وقت الحساب عند الله فغفر الله له

فتصبح تلك الآية وقول المؤمن

تعبيرا عن سعادته انه غفر الله له عما أحدثه من سيئات

كان يعتقد انه سيعاقب عليها

مثل طالب لم يكن يذاكر بمقدار كبير واعتقد انه سيرسب في الاختبار

ولكن نجح فكان يظن قبل ظهور النتيجة أنه سيرسب فيقول في عز

فرحه أنه كان يظن أنه سيرسب

والتأويل الثاني :

أني تفكرت في أمري ، **فظننت** أن مثلي لا يترك سدى هملا ،

فأدى ظني إلى اليقين ، فأمنت ، وصدقت الرسل ،

فإنما نجوت بأول ظني وفكرتي .

ومنهم من صرف الظن إلى اليقين والعلم ،

فقال : معنى قوله : { ظننت } أي تيقنت وعلمت .

كيف يصل الظن إلى اليقين؟

والأصل أن كل يقين حدث في الأمور المستترة والعلوم الخفية
فإنما يتولد ذلك عن ظن ، يسبقه ،

فيحمله ذلك الظن على النظر فيه والبحث عن حاله
حتى يفضي به (يؤدي ذلك) إلى الوقوف على ما استتر منه ،
فيصير الخفي جليا (واضحا) ،

فيكون السبب في بلوغه إلى اليقين والإحاطة هو [ذلك الظن] الذي
سبق منه .

فجائز أن يسمى ذلك يقينا مرة على الحقيقة ، وظنا ثانيا على المجاز
ويمكن هذا المثال أن يوضح ذلك:

في قوله عز وجل: { **وتعيها أذن واعية** } [الآية : ١٢]
أن الأذن لا تعي شيئا ، بل تسمع ،

ولكنه لأن الوصول إلى الوعي يكون بوسيلة الأذن
أي أنه صارت الأذن سببا للإيصال إلى الوعي ،

يمكن القول أنه ظنونهم في الابتداء قد بلغتهم إلى اليقين والعلم
لذلك سموا يقينهم وعلمهم ظنا مرة ويقينا ثانيا .

ألا ترى أن الله تعالى قال

{ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون } [البقرة : ٤٦]

وقال في موضع آخر : { وبالآخرة هم يوقنون } [البقرة : ٤]
فجعلهم مرة ظانين ومرة موقنين

في ما كان طريقه البحث وإعمال الفكر .
وبهذا لا يجوز أن يوصف الله تعالى بالإيقان في أمر من الأمور ،

لأن الأشياء له بارزة ظاهرة ، إذ هو منشئها وخالقها ،

فلا يخفى عليه شيء منها ، فيحتاج إلى البحث عنها والنظر فيها ،

والخلاصة : قال الضحاك : كل ظن في القرآن

من المؤمن فهو يقين ، ومن الكافر فهو شك ،

وقال مجاهد : ظن الآخرة يقين ، وظن الدنيا شك .

أن المؤمن أحسن بربه الظن ، فأحسن العمل ،

وأن المنافق أساء بربه الظن فأساء العمل .

والمعنى : اني كنت متيقنا في دار الدنيا بأنني ألقى حسابي يوم

القيامة ، واعلم أنني اجازي على الطاعة بالثواب

واجازي على المعاصي بالعقاب ،

فكنت أعمل بما يجب علي من الطاعات واجتنب المعاصي

وبما أن الظن سبب للوصول الى اليقين

فالمؤمن يصل به الظن الى اليقين

بينما الكافر يبقى في الظن والشك فقط لا يتعداه

كما في قوله عز وجل (لهم آذان لا يسمعون بها) (الأعراف: ١٧٩)

فلم يستخدموا وسيلة الوعي لكي يصلوا الى اليقين فلم يحاولوا ان يتفكروا ويتدبروا ماسمعوه

[فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ] [الحاقة : ٢١]

ولتوضيح لماذا قيل راضية وليس مرضية نوضح:

قيل : رجل لابن ورجل تامر ، أي ذو لبن وذو تمر

أي صاحب لبن وصاحب تمر وبما أن رجل تامر لديه تمر

وبالتالي عيشة راضيه (عيشة لديها الرضى)

(تخيل التمر عند صاحب التمر)

(كذلك الرضا موجود في عيشة الجنة)

الرضا لكل جوانب العيشه

فقد تكون العيشه في الدنيا فيها ما يكدر صفوها مهما كانت رفاهيه

لسبب أو لآخر (مرض/ أبناء سيئين /نكد / سوء عشرة من الزوجه)

ولكن عيشة الجنة فيها الرضا من كل جوانب العيشه

كلها فيها الرضا اللهم نسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل

اللهم نسألك الجنة بغير سابقة حساب ولا عذاب

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم

(أنهم يعيشون فلا يموتون أبدا ويصحون فلا يمرضون أبدا

وينعمون فلا يرون بؤسا أبدا ويشبون فلا يهرمون أبدا)
حالة من العيش ذات رضى أى يرضى بها صاحبها
(ذات رضا) يرضى بها صاحبها ،
لا يضجر منها ولا يملها ولا يسأمها

(**فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ**) [الحاقة : ٢٢]

أى : رفيعة المقدار والمكان .

والعلو إن أريد به العلو في **المكان** : فهو حاصل ،

لأن الجنة فوق السماوات

وإن أريد العلو في **الدرجة والشرف** : فالأمر كذلك ،

وإن أريد به كون تلك **الأبنية عالية مشرفة** : فالأمر أيضا كذلك .

والمراد بعلوها علو قدرها أو علو مكانها

(**قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ**) [الحاقة : ٢٣]

{ **قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ** } آية يعني ثمرتها قريبة بعضها من بعض

يأخذ منها إن شاء جالسا ، وإن شاء متكئا

والقُطُوف : جمع قُطْف بكسر القاف وسكون الطاء وهو ، ما يقطف

من الثمار ، ، سمي بذلك لأنه يُقطف

وأصله فعل بمعنى مفعول بمعنى مقطوف (**قُطِفَ** فهو مقطوف)

مثل ففديناه بـ **ذبح** عظيم والكبش هو المذبوح .
" دانية " اسم فاعل ، من الدنو معنى القرب .

ومعنى دُنُوها : قربها من أيدي المتناولين لأن ذلك أهنا إذ لا كلفة فيه ،
قال تعالى : { وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا } [الإنسان : ١٤] .

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) [الحاقة : ٢٤]

يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ
وَلَا يَبُولُونَ ، وَلَكِنْ طَعَامُهُمْ ذَلِكَ جُشَاءً كَرَشِحِ الْمِسْكِ
يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالْحَمْدَ ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفْسَ

قال وفي حديث حجاج طَعَامُهُمْ ذَلِكَ . وفي رواية : عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِمِثْلِهِ غَيْرَ ، أَنَّهُ قَالَ : وَيُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّكْبِيرَ كَمَا
تُلْهَمُونَ النَّفْسَ .

الراوي : جابر بن عبدالله | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم

(في الايام الخالية) أي الماضية أيام الدنيا في دار التكليف

تأويله أن يقال : إنما **جعلتم** أيامكم الماضية **سلفا** (في أيام الدنيا) ،
و**سلف** الرجل لآخر ، وهو أن

يعطيه قرضا ليأخذ مثله وقت الحاجة إليه ،

أو يسلم الرجل رأس ماله في الأشياء التي يأمل منها الربح ،

فكأنما جعل المؤمن أيام الدنيا سلفا ورأس مال ليأخذ ربح ما باعه

ويجده في الآخرة ، فذلك هو الإسلاف ، وعليه ربح البيع
وذكر عن وكيع أنه قال : بلغنا أن الذين أسلفوا الصوم
أي أنهم صاموا في الدنيا ، وتركوا الطعام والشراب ،
فأثابهم الله في الآخرة فقال { **كلوا واشربوا هنيئاً** } .
وروى يقول الله عز وجل : يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا
وقد قلصت شفاكم عن الأشرية ؛ وغارت أعينكم ،
وخمصت بطونكم ، فكونوا اليوم في نعيمكم ، وكلوا واشربوا هنيئاً
بما أسلفتم في الأيام الخالية

(**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ**)

[الحاقة : ٢٥]

أنه كان مستوراً فافتضح ، ومن عادة العرب :
أن تفرق بين القبول والرد وبين الكرامة والهوان ، باليمين والشمال ،
فتجعل اليمين بشيراً بالقبول والكرامة ،
وتجعل الشمال نذيراً بالرد والهوان .

قال ابن السائب : تلوى يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطى كتابه .

{ **فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه** } يتمنى أنه لم يؤت كتابه لما يرى فيه
من قبائح أعماله

واعلم أنه تعالى بين أنه لما نظر في كتابه وتذكر قبائح أفعاله
خجل منها وصار العذاب الحاصل من تلك الخجالة أزيد من عذاب
النار ، فقال : ليتهم عذبوني بالنار ،
وما عرضوا هذا الكتاب الذي ذكرني قبائح أفعالي
حتى لا أقع في هذه الخجالة ،
وهذا ينبهك على أن العذاب الروحاني أشد من العذاب الجسماني

(**وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّهٖ**) [الحاقة : ٢٦]

يقول هذا في الوقت الذي قرأ ، ورأى فيه خلاف ما كان يظن في
الدنيا ، ويحسب ، لأنه كان يحسب أنه في الدنيا أحسن صنعا من الذين
آمنوا ، وأنه أقرب منزلة إلى الله تعالى كما قال

{ **وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** } [الكهف : ١٠٤]

فظهر له بقراءة الكتاب أنه لم يكن على [ما] حسب ،
بل قد أساء صنعه ، فود عند ذلك ألا يعرف ما حسابه

لئلا تظهر مساوئه . أي يا ليتني لم أعلم ما حسابي
ويحتمل أنه يتمنى أنه ترك ميتا ، ولم يحي حتى كان لا يرى الحساب
، ولا يعرفه .

وجملة { **وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّهٖ** } في موضع الحال من ضمير { **لَيْتَنِي** }
ويجوز أن يكون عطفاً على التمني ،

أي يا ليتني لم أدْرِ مَا حِسَابِيَّهٖ ، أي لم أعرف كنه حسابي ، أي نتيجته
، وهذا وإن كان في معنى التمني الذي قبله فإعادته تكرير لأجل

التحسر والتحزن . و { ما } استفهامية ، والاستفهام بها هو الذي علق
فعل { أدِر } عن العمل ، و { **يا ليتها كانت القاضية** } تمنّ آخر ولم
يعطف على التمنيّ الأول لأن المقصود التحسر والتندم .

{ **وأما من أوتي كتابه بشماله** } وهو الذي كذب بالحساب والجزاء
وطغى وبغى على العباد ، وعبر سبحانه عنه بمن أخذ كتابه بالشمال
للإشارة إلى أن أعماله عادت عليه بالشؤم والوبال

(**يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ**) [الحاقة : ٢٧]

يا ليت الموتة التي متّها في الدنيا كانت القاضية التي ليس شيء بعدها
، فلم أبعث بعده يتمنى دوام الموت ، وأنه لم يبعث للحساب ولم يلق ما
فيه من عذابٍ

(**مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ**) [الحاقة : ٢٨]

في الأصل أن الكفرة كانوا يفتخرون بكثرة أموالهم وأولادهم
فيقولون : { **نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين** } [سبا : ٣٥]
فيزعمون أن الله تعالى بما آتاهم من الأموال يدفعون عن أنفسهم
العذاب بأموالهم ، إن حل بهم ، فيتبين لهم في ذلك الوقت أنها لا تغني
عنهم شيئا ، فيقول كل واحد منهم : { ما أغنى عني ماليه } .

يعني أنه لم يدفع عنه ماله الذي كان يملكه في الدنيا من عذاب الله شيئا
ما نفعني مالي الذي كان لي في الدنيا

(**مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ**) [الحاقة : ٢٨]

يتحسر أن لا شيء نفعه مما كان يعتز به أو يجمعه :

(مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهٗ) . .

(هَلْكَ عَنِي سُلْطَانِيَهٗ) . .

فلا المال أغنى أو نفع . ولا السلطان بقي أو دفع . .

والرنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة

وفي ياء العلة قبلها بعد المد بالألف ، في تحزن وتحسر . .

هي جزء من ظلال الموقف

الموحية بالحسرة والأسى إحياء عميقا بليغا .

وفي هذا تعريض بالعتاة من مشركي العرب مثل أبي جهل وأمّية بن خلف

قال تعالى : { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ } [المزمّل : ١١] .

(هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ) [الحاقة : ٢٩]

عن ابن عباس هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ يقول :

ضلت عنى كلّ بينة فلم تغن عنى شيئا .

عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال :

كل لفظ سلطان في القرآن فهو حجة .

والأصل أن كل كافر كان يحتج في الدنيا لنفسه بحجج باطلة :

فمرة يقول : { ما أنت إلا بشر مثلنا } [الشعراء : ١٥٤ و ١٨٦] ،

ويقول مرة : { ما هذا إلا أساطير الأولين } [الأحقاف : ١٧]

ومرة يقول : { هذا سحر } [النمل : ١٣ و . .]

ومرة يقول : { مجنون } [الدخان : ١٤]

وغير ذلك فيصير يقول : { هلك عني سلطانيه }

أي هلكت تلك الحجج التي كنا نتشبت بها ، واضمحلنا ، وظننا أنها حجج .

ومنهم من يقول : السلطان هو القدر والشرف ، أي ذهب ذلك كله .

وقيل : أي هلك عني تكبري وسلطاني على الأشياء في الدنيا وترك
الاكترات إليهم .

وجائز أن يكون أراد به

أن السلطان الذي كان له على نفسه في الدنيا قد انقطع

لأنه كان يملك استعماله في الدنيا فيسلم لكي يرضى الله ، ولكنه كفر

فيقول يوم الحساب: قد انقطع ذلك السلطان

لأنه لا يملك الآن استعماله في ما أستوجب به مرضاة الرب ، كي يسلم

، فلا يقبل منه إسلامه .

وقلنا سابقا : أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون بتنوع تنوع البشر تنوع

الحيوانات عشرات الآلاف من الأصناف ومثله الطيور عشرات الآلاف

ومثله الأسماك عشرات الآلاف من الأنواع والنباتات

حتى خلايا الجسد لها الشكل والوظيفه التي قد تتنوع وظيفتها للعضو الواحد

فقدرة الله في الخلق والإبداع يجعل أن العقل الذي جعله الله للتفكير يضع احتمالات مختلفة لتأويل نفس اللفظ وهذا يحفز العقول المفكرة المختلفة

يحفزها في الخشية من الله كلا حسب فهمه

فهناك من يخشى الله بسبب تخيل معين لهذا الموقف

ناتج عن تفسير معين وهناك من يخشى الله اذا قرأ التفسير الآخر

طالما أن التفسيرات معقولة ليس فيها شطط ومبالغة

طالما أنه:

تفسير ومحاولة تأويل يتناسب مع الألفاظ فهذا التنوع في التفسير في حد ذاته

إعجاز للمتدبرين ومحفز للعقول القارئة

(خَذَوْهُ فَعَلَّوْهُ) [الحاقة : ٣٠]

{ خذوه } : أي يقال للزبانية ، (ملائكة العذاب و خزنة وحراس جهنم) ، { خذوه فعلوه } يعني شدوه بالأغلال وغلوا يديه إلى عنقه

والغل : القيد الذي يجمع بين اليدين والعنق

كقوله في موضع آخر :

{ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم } [الدخان : ٤٧]

وهو السوق إلى الحنف وكقوله في موضع آخر :

{ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا } [مريم : ٨٦]

فكأنهم ، والله أعلم مغلون بدء الأمر بالأغلال

لأن الناس في الدنيا يجتهدون كل الجهد في دفع العذاب بأيديهم .
فأخبر أن أيديهم تغل في الآخرة ،

فلا يتهيأ لهم دفع ما يحل من العذاب ، فيكون ذلك أشد عليهم ،
ويكون حالهم كما قال الله تعالى :

{ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة } [الزمر ٢٤]

فتغل يداه كي لا يتقي النار عن وجهه

ثم يدخلون في السلاسل ، فيجرّون ويسحبون ،

ويساقون ، على وجوههم على اختلاف أحوال القيامة .

والمسؤولون عن القيام بذلك هم الزبانية (خزنة جهنم)

عدتهم تسعة عشر ، قيل تسعة عشر ملكا وقيل تسعة عشر صفا

وقيل تسعة عشر صنفا ، حكى الثلاثة الرازي .

(ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلْوَةٌ) [الحاقة : ٣١]

فالجحيم هي النار الغليظة لان النار قد تكون ضعيفة كنار السراج ونار القدر ، وقد تكون قوية كنار الحريق فلا يقال لنار السراج : جحيم ،

و**الجحيم** اسم علم على نار جهنم التي أعدها الله للكفار والعصاة ، و**التصلية** إلزام النار واصله لزوم الامر

أى لا تُصَلُّوه إلا الجحيمَ وهى النارُ العظيمةُ ليكونَ الجزاءُ على وفقِ المعصيةِ

حيثُ كانَ يتعاضمُ على الناسِ

ومعنى **{ صَلُّوهُ }** بالغوا فى تصليته النار ،

بغمسه فيها مرة بعد أخرى . يقال : صَلَّى فلان النار ، إذا ذاق حرها

وبالتالى : بالغوا فى تصليته كالشاة المصلية .

(ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذُرْعَاهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ) [الحاقة : ٣٢]

سلكه فى السلسلة : أن تلوى على جسده حتى تلتف عليه أثنائها ؛ وهو فيما بينها

مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة ؛ وجعلها سبعين ذراعاً إرادة الوصف

بالطول . كما قال : **{ إن تستغفر لهم سبعين مرة }** [التوبة : ٨٠] ، يريد : مرات

كثيرة ، لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد . والمعنى فى تقديم السلسلة على السلك :

مثله فى تقديم الجحيم على التصلية . أى : لا تسلكوه إلا فى هذه السلسلة ،

كأنها أفزع من سائر مواضع الإرهاق فى الجحيم .

ومعنى **{ ثُمَّ }** الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم ،

وما بينها وبين السلك فى السلسلة ، لا على تراخي المدة

(إنه) تعليل على طريق الاستئناف ، وهو أبلغ ؛

كأنه قيل : ما له يعذب هذا العذاب الشديد ؟

فأجيب بذلك { فاسلكوه }

{ فاسلكوه } من السلك بمعنى الإدخال فى الشئ ، كما فى قوله - تعالى -

{ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ } أى : ما أدخلكم فيها

أى : خذوا هذا الكافر ، فقيدوه ثم أعدوه للنار المحرقة .

ثم اجعلوه مغلولاً فى سلسلة طولها سبعين ذراعاً ،

بحيث تكون محيطه به إحاطة تامة .

أى ألقوا به فى الجحيم وهو مكبل فى أغلاله .

و { ثم } فى كل آية جئ بها للتراخى الرتبى ، لأن كل عقوبة أشد من سابقتها . إذ

إدخاله فى السلسلة الطويلة . أعظم من مطلق إلقائه فى الجحيم كما أن إلقاءه فى

الجحيم ، أشد من مطلق أخذه وتقييده .

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ) [الحاقة : ٣٣]

{ إنه } الضمير راجع للكافر { كان } فى حياته الدنيا

{ لا يؤمن } لا يصدق { بالله العظيم } وما جاء من عنده

ففيه بيان السبب الذى لأجله استوجبوا هذا العقاب ،

وهم أنهم كانوا لا يؤمنون بالله العظيم .

أى افعلوا ذلك به جزاء له على كفره بالله فى الدنيا وإشراكه به سواه ، وعدم

القيام بحق عبادته وأداء فرائضه: { لا يؤمن بالله } جائز أن يكون لا يؤمن

بوحدانيتها ، أو لا يؤمن بإرسال الرسل ،

أو كان لا يؤمن بالبعث . وإلا فهم لا يؤمنون بالله ،

ولكن من لم يكن مؤمناً بالرسول والبعث فهو غير مؤمن في الحقيقة ، لأن الإله الحق هو الذي أرسل الرسل ، ويقدر على البعث ، والكافر لا يثبت له قدرة البعث ، ولا يراه أرسل الرسل ، فصار لا يؤمن بالله العظيم في الحقيقة .

فقد استكبر وتمرد ورفض الخضوع لكل الدلائل الواضحة والبيّنات الظاهرة على وجود الله سبحانه ،

لا من موقع الفكر المضاد ، ولكن من موقع العناد الذي يتحرك على أساس منطق اللامبالاة بمسألة العقيدة التي لا يريد أن يشغل فكره بها ، لأنه لا يريد أن يخرج من جوه الكافر المتخلف ، فقد قامت عليه الحجة القاطعة التي تبرر عذابه في نار جهنم

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ) [الحاقة : ٣٤]

والحض على الشيء : أن يطلب من أحد فعل شيء ويلح في ذلك الطلب

ويجوز أن يكون قوله :

{ ولا يحض على طعام المسكين }

إثبات السخرية من الذي ترك [حض أهله على الإطعام] كقوله :

{ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه } [يس ٤٧] يقول : كيف نطعمه ،

ومن بيده خزائن السماوات والأرض ، لا يطعمه ؟

فلو كان أهلاً للإطعام لكان الأولى بأن يطعمه الله تعالى

والمعنى لهذا الكلام :

أنه كان من كلام الكفار أن من يدخل الإسلام من فقراء مكة لانعطيه طعام

ونتركه لله يطعمه

لذلك في الآخرة يُظهر الله استكبار ذلك الكافر والعند ضد اطعام المساكين

فالיום يلاقي هذا المستكبر جزاء عدم إيمانه
وكذلك جزاء أذيته للمساكين بعدم إطعامهم

قوله تعالى :

{ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ } .
فيه عطف عدم الحض على طعام المسكين ،
على عدم الإيمان بالله العظيم ،

مما يشير إلى أن الكافر يعذب على الفروع .
وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث هذه المسألة في أول
سورة فصلت عند قوله تعالى :

{ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } [فصلت : ٦] ، كما أن الإيمان
يزيد بالطاعة ، والمؤمن يثاب على إيمانه وعلى طاعته ، فكذلك الكفر يزداد
بالمعاصي .

ويجازى الكافر على كفره وعلى عصيانه ،
كما في قوله تعالى :

{ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ
زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ }
[النحل : ٨٨] .

فعذاب على الكفر وعذاب على الإفساد ،
ومما يدل لزيادة الكفر ، قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ

ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ } [آل عمران : ٩٠]

ونتذكر ما حدث لرسول الله والصحابه

بعدما وقع كفار قريش صحيفة المقاطعه

لمدة ٣ سنوات عانى فيها المسلمون من الجوع

ازداد الوضع سوءاً على المسلمين وبني هاشم،

فقرّروا الانحياز إلى شعب أبي طالب والمكوث فيه، واستمرّ حصارهم في

هذا المكان ثلاث سنوات

حتى عام الحزن، وقد انقطعت عنهم كلّ سبل الحياة،

حتى أكلوا أوراق الشجر والجلود من الجوع

(فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ) [الحاقة : ٣٥]

الحميم : القريب . وتفسير مجاهد : الحميم : الشفيق .

أي:فليس له اليوم ها هنا قريب ينفعه أو أحد يشفق عليه

وهو كقوله تعالى :

{ ولا يسأل حميم حميما }

وكقوله : { ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع } .

وقوله : { فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون } [المؤمنون : ١٠١]

(وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ) [الحاقة : ٣٦]

كقوله تعالى في موضع آخر :

{ ليس لهم طعام إلا من ضريع } [الغاشية : ٦]

وقوله تعالى في موضع آخر :

{ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون }

{ لآكلون من شجر من زقوم } [الواقعة : ٥١ و ٥٢]

والزقوم غير الضريع .

فهذا ، والله أعلم ، أن في جهنم دركات ، فأهل دركة منها ،

لا يجدون غير الغسلين ، وأهل دركة منها ، طعامهم الزقوم ، ليس لهم غيره ،

ثم يجوز أن يكون قدر كل أهل دركة ما توجبه الحكمة أن يكون طعامهم .

فعلى ما كانوا يفتخرون في هذه الدنيا بالأطعمة على من دونهم ، ويهينون

من لم يكن عنده ذلك الطعام ، جعل الله تعالى لهم من ذلك الوجه

طعاما في الجحيم ، يهانون به .

وقوله تعالى : { إلا من غسلين } جائز أن يكون هذا

اسما لشيء من الأشياء التي يعذب بها أهل النار ،

لم يطلع الله تعالى الخلق على علم ذلك ومعرفته ،

وقد ذكر أسامي في الآخرة ، ليس للخلق بمعرفتها عهد .

ألا ترى أن الزقوم ليس باسم لشيء يستقبح ، ويستفزع في الدنيا ، ثم جعله الله

تعالى اسما لشيء المستبشع الكريه في الآخرة ، وقال { عينا فيها تسمى سلسبيلا }

[الإنسان : ١٨] والسلسبيل غير معروف في ما بين أهل اللسان ؟ .

وقال بعضهم : الغسلين ما يسيل من جلود أهل النار إذا عذبوا ، وذلك هو الصيد

والقيح .

(لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ) [الحاقة : ٣٧]

لا يأكل الطعام الذي من غسلين إلا الخاطئون ، وقال ابن عباس : يعني المشركين

وعن الحسن أنه قال : إن المؤمن قوام نفسه لله تعالى ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم ، حاسبوا أنفسهم في الدنيا ،

وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة

إن المؤمنين قوم أوثقهم العذاب ، وحال بينهم وبين هلكتهم أن المؤمن أسير في الدنيا ، يسعى في فكاك نفسه من عذاب الآخرة ،

لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره وجوارحه كلها ،

فمحاسبة النفس أن ينظر في كل فعل يريد أن يقدم عليه إلى عاقبته . فإن كان رشداً أمضاه ، وأنفذه ، وإن كان غياً انتهى عنه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته ، فإن كان رشداً فامضه وإن كان غياً فانتبه عنه "

والخاطئ : الذي يفعل ضد الصواب متعمداً

والمخطئ : الذي يفعله غير متعمد

ولنسترجم كيف أظهر الله في الآيات بشكل مجمل عذاب أهل النار وأفعالهم :

وبما احتوت من وصف لحالة يوم القيامة :

فحينما يحين الحين وينفخ في الصور وتحمل الأرض والجبال فتندك وتنهار وتشقق السماء وتتداعى تكون الواقعة قد وقعت والقيامة قد قامت . وإذ ذاك يحدق الملائكة

بجميع الأرجاء والجوانب ، ويتجلى الله على عرشه المحمول من قبل ثمانية من

ملائكته فوق الكون والخلق ، ويعرض الناس عليه دون أن تخفى منهم خافية ،

ويكون قضاء الله فيهم ، حيث يكونون فريقين :

فريقا يعطي كتابه بيمينه فيبتهج ويسر بما كان عليه من يقين بالله ولقائه وحسابه ويدخل الجنة ليتمتع فيها بالعيشة الراضية والقطوف الدانية ،

ويقال له : كل واشرب هنيئا

فهذا جزاء ما قدمت من صالح العمل في الدنيا .

وفريقا يعطى كتابه بشماله فيعتريه الرعب ويستشعر بالندم والحسرة ويتمنى لو لم يبعث ولم يحاسب ،

ويعول قائلا إن ماله لم يغن عنه شيئا ، وسلطانه أو حجته أو قدرته على أن يؤمن بالله أصبحت غير موجودة

قد غابت عنه ويؤمر الموكلون بالعذاب بأخذه وغل يده وطرحه في جهنم وربطه بسلسلة طولها سبعون ذراعا ؛ لأنه لم يؤمن بالله العظيم ، ولم يكن يحض على طعام المسكين ، ولن يجد له حينئذ صديقا حميما ولا ناصرا معينا ، ولن يكون له طعام إلا الصيد المعد للآثمين أمثاله .

والصلة بين هذه الآيات وسابقتها قائمة في هدف التذكير والإنذار . فكما أهلك الله المكذبين الكافرين الأولين

بأنواع البلاء في الدنيا فقد أعد لهم أنواع العذاب في الآخرة . وشأن كفار العرب شأن الكفار السابقين ومصيرهم هو نفس المصير .

ولعله جاءت الآيات في هذه الصورة المفزعة لأن البيئة كانت جبارة قاسية عنيدة تحتاج إلى عرض هذه المشاهد العنيفة

كي تؤثر فيها وتهزها وتستحييها .

ومثل هذه البيئة يتكرر وجودها في الجاهليات الموجودة في العصور التالية التي تمر بها البشرية ،

بالرغم من أنه يوجد في نفس الوقت أرق البيئات

وأشدها تأثيراً واستجابة .

لأن رقعة الأرض واسعة .

وتوزيع المستويات والنفسيات فيها مختلف

والقرآن يخاطب كل مستوى وكل نفس بما يؤثر فيها ،

وبما تستجيب له حين يدعوها .

والأرض تحتوي اليوم في بعض نواحيها قلوباً أقيس ، ، وجبالاً لا يؤثر فيها

إلا كلمات من نار وشواظ

كهذه الكلمات ومشاهد وصور مثيرة كهذه المشاهد والصور المثيرة . .

وقد ذكر مصير المؤمنين الصالحين في سياق ذكر مصير الكفار للمقابلة والتنويه
جريا على الأسلوب القرآني

وقد جاء وصف مصير المؤمنين أخاذاً من شأنه أن يبعث الطمأنينة والاستبشار
والرغبة في العمل الصالح في المؤمنين

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ) [الحاقة : ٣٨]

المقسم عليه إذا كان منتقياً (أي : هناك من نفاه)

جاز الإتيان بـ(لا) قبل (القسم) لتأكيد (النفى)

فمثلا : الكفار ينفون البعث (لأنهم لا يبصرونه) فيقسم الله بالبعث الذي نفوه

فلا أقسم بما تبصرون وبما لاتبصرون

يعني الله عز وجل يقول /

أقسم بما تبصرونه وبما لاتبصرونه

للتوضيح التفصيلي : لا أقسم بيوم القيامة

وكذلك نفي الإيمان بيوم القيامة

فتأتي لا النافية قبل القسم (لا أقسم بيوم القيامة)

المقسم عليه إذا كان منتفياً: إذا أقسمت لإثباته وتأكيده وتقريره

تقول: **لا** لما تقولون، **لا** لدعاواكم الباطلة في التكذيب بيوم القيامة،

لا لما تقولون، **لا** لما تدعون وتفترون،

ثم قال : **أقسم بيوم**،

لا أقسم بيوم القيامة،

فصار هناك فصل بين "لا" وبين فعل القسم الذي هو **أقسم**، فـ"لا" تتعلق بشيء

قبلها، وهو تكذيب المكذبين، لما كذبوا -وقع التكذيب منهم- قال:

"لا" لفرام وتكذيبكم أقسم بيوم القيامة

، وعلى هذا تكون "لا" نافية لقولهم الكاذب

(**فلا أقسم بما تبصرون**) ٣٨ (**وَمَا لَا تَبْصِرُونَ**) ٣٩

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) ٤٠

الآيتان ٣٨ و ٣٩ وقوله تعالى :

{ فلا أقسم بما تبصرون } { وما لا يبصرون }

قد وصفنا أن تأويل قوله :

{ فلا أقسم بما تبصرون } من خلق السماوات والأرض وأنفسكم من الأسماع والأبصار والقلوب والعقول ، أو ما تبصرون من الخلائق ممن حضركم

{ وما لا تبصرون } من الخلائق إن غاب عنكم .

فيكون القسم بما نبصر وما لا نبصر قسما بالخلائق أجمع ، لأن جملة الخلائق على هذين الوجهين : فصنف يرى ، وصنف لا يرى . وقد ذكرنا أن

أى أن الله عز وجل يقسم بـ

جميع المكونات والموجودات ،

وقيل : الدنيا والآخرة

وقيل : ما في ظهر السماء والأرض وما في بطنها .

وقيل : الأجسام والأرواح .

وقيل : النعم الظاهرة والباطنة .

وقيل : ما تبصرون : الإنس

وما لا تبصرون : الجن والملائكة .

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ) ٣٨ (وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) ٣٩

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) ٤٠

أى : أقسم بما يبصرونه من أن محمد الذي ترونه أمامكم وتبصرونه هو رسول الله

وأقسم بما لا يبصرونه هو نزول الوحي بالقرآن عليه

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) جواب القسم

و(لَا) النافية : تعني لا لكذبكم عنه أنه شاعر وأنه كاهن

ولكن القرآن أنزله رب العالمين

(وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ) [الحاقة : ٤١]

(وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) [الحاقة : ٤٢]

(تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الحاقة : ٤٣]

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) ٤٠

اعلم أن نظير هذه الآية قوله في الشعراء :

{ إنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين }
فهو كلام رب العالمين لأنه تنزيله ، وهو قول جبريل لأنه نزل به ،

وهو قول محمد لأنه أنذر الخلق به ،

فهاهنا أيضاً لما قال فيما تقدم :

{ إنه لقول رسول كريم } أتبعه بقوله :

{ تنزيل من رب العالمين } حتى يزول الإشكال

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ) [الحاقة : ٤٤]

{ ولو تقول علينا } محمد شيئاً منه

ومعنى التقول : ينسب إلى أحد ما لم يقل

{ بعض الأقاويل } آية فزاد في الوحي أو نقص منه (يعنى من تلقاء نفسه

ما لم نقل)

و: «قول»: جمعها «أقوال» و: «أقوال» جمعها «الأقاويل» إذن :

الأقاويل جمع الجمع ،

قال الزمخشري : وسمى الأقوال المنقولة أقاويل

تصغيراً لها وتحقيراً ، كقولك : الأعاجيب والأضاحيك

ثم أخبر تعالى أن محمداً لو تقول على الله شيئاً لعاقبه بما ذكر ،

وفي النهاية يجيء ذلك التهديد الرعيب ، لمن يفترى على الله في شأن العقيدة وهي الجد الذي لا هوادة فيه . يجيء لتقرير الإحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول [صلى الله عليه وسلم] وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه . بشهادة أن الله لم يأخذه أخذا شديدا . كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ :

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) . .

ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمدا [صلى الله عليه وسلم] صادق فيما أبلغهم . وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه ، لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات . ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق

(**لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ**) [الحاقة : ٤٥]

والأخذ على يديه : منعه بالقوة عن عمل شيء

لأخذناه بقوة ، أي دون إمهال فالباء للسببية

واليمين القوة ، وسميت اليمين يمينا لأن قدرة الرجل تكون فيها ، وسمي ملك الرقاب ملك اليمين لأن ملك اليمين يكتسب بالقهر والغلبة ، وإنما يصل المرء إلى القهر والغلبة بالقوة ، فسمي ملك يمين لهذا ، لا أن يراد بذكر اليمين تحقيق اليمين ، إذ اليد لا تملك شيئا حتى يضاف إليها ، فكذلك في ما أضيف من اليمين إلى الله تعالى ، فالمراد منه القوة .

وقال القتيبي: إنما قام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في يمينه.

ولأهل اللغة في هذا مذاهب أخر، وهو قولهم

إذا أرادوا عقوبة أحد ، فيقولون :

خذ بيده ، وافعل به كذا وكذا .

وهذا كقوله : ذي السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه ،
واهانت له لبعض أعوانه ، خذ بيده فاقمه ، واعتمد ابن جرير هذا التأويل .

قال الله تعالى : لو كذب علينا لأمرنا بالأخذ بيده ثم عاقبناه

(ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) [الحاقة : ٤٦]

الوتين : نياط القلب وهو العرق الذي يتعلق القلب به ،

إذا انقطع مات صاحبه ، فنقطع ذلك السبب بمخالفته إيانا

هذا المشهد يلقي ظلالة بعيدة وراء المعنى التقريري

حيث وراءها الإيماء إلى جدية هذا الأمر التي لا تحتمل تسامحا ولا مجاملة
لأحد كائنا من كان .

ولو كان هو محمد الكريم عند الله الأثير الحبيب

(فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) [الحاقة : ٤٧]

ولو أخذته لم يقدر أحد منكم على دفعنا عنه

(وَإِنَّهُ لَتَذَكِّرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) [الحاقة : ٤٨]

والتذكرة : اسم مصدر التذكير وهو (التنبيه إلى مفعول عنه) .

والمتقين هم الموحدين المؤمنون فإنهم المتصفون بتقوى الله لأنهم يؤمنون بالبعث والجزاء دون المشركين ، فسامهم مرة متقين ومرة صابرين ومرة شاكرين كقوله عز وجل

{ إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } [إبراهيم : ٥] وهو تذكرة لأنه يذكرهم الوعد والوعيد وما يتقى وما يؤتى وكلما نزل منه شيء أو تلاوا منه شيئاً ذكرهم بما علموا لئلا تعثر بهم غفلة أو نسيان فالقرآن تذكرة للمتقين في الماضي والحال والمستقبل. فهو تذكرة ،

بعباداتهم وأمور دينهم وأسباب الفلاح ليبقوا على تذكرة بها فيسعدوا بالجزاء

(وَإِنَّهُ لَتَذَكِّرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) [الحاقة : ٤٨]

وأخيراً تجيء الخاتمة التقريرية بحقيقة هذا الأمر وطبيعته القوية :
(وَإِنَّهُ لَتَذَكِّرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مَّكَذِبِينَ . وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ . وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ) .
فهذا القرآن يذكر القلوب التقية فتذكر .

إن الحقيقة التي جاء بها كامنة فيها . فهو يثيرها فيها ويذكرها بها فتذكرها . فأما الذين لا يتقون فقلوبهم مطموسة غافلة لا تتفتح ولا تتذكر ، ولا تفيد من هذا الكتاب شيئاً . وإن المتقين ليجدون فيه من الحياة والنور والمعرفة والتذكير ما لا يجده الغافلون .

فكتاب الله يثير في نفوس الكافرين ، وهم أحياء في الدنيا ، مشاعر
الأسى والحسرة على ما هم غارقون فيه من الأوجال ، كما يكون
عليهم حسرة في الآخرة ، بما ينالهم من عذاب الله

(وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ) [الحاقة : ٤٩]

{ وإنا } أي : بما لنا من العظمة { لنعلم } أي : علماً عظيماً محيطاً
{ أن منكم } أي : أيها الناس { مكذبين } بالقرآن ومصديقين ، فأنزلنا الكتب
وأرسلنا الرسل

لنظهر منكم إلى عالم الشهادة ما كنا نعلم في الأزل
غيباً من تكذيب وتصديق فتستحقون بذلك الثواب والعقاب
فلذلك وجب في الحكمة أن نعيد الخلق إلى ما كانوا عليه من أجسامهم قبل
الموت لنحكم بينهم فنجازي كلأ بما يليق به إظهاراً للعدل .

(وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ) [الحاقة : ٤٩]

مكذبين له بسبب حب الدنيا ، فكأنه تعالى قال : أما من اتقى حب الدنيا
فهو يتذكر بهذا القرآن وينتفع .

وأما من مال إليها فإنه يكذب بهذا القرآن ولا يقربه .

يقول الرازي في تفسيره وأقول للمعتزلة: أن يتمسكوا بهذه الآية على أن
الكفر ليس من الله ، وذلك لأنه وصف القرآن بأنه تذكرة للمتقين ، ولم يقل
: بأنه إضلال للمكذبين ، بل ذلك الضلال نسبه إليهم ،

فقال : وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ،

(**وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ**) [الحاقة : ٥٠]

يعني : إن هذا القرآن ندامة على الكافرين يوم القيامة ،

{ **وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ** } أي سبب للحسرة { **على الكافرين** } حين يرون ثواب المؤمنين المتذكرين به

{ **وَإِنَّهُ لَتَذَكْرَةٌ** } : أي : القرآن ، وكذلك " إنه لَحَسْرَةٌ "

والْحَسْرَةُ : **الندم الشديد المتكرر على شيء فانت مرغوب فيه** ،
ويقال لها : التلهف ، اشتقت من الحَسْر وهو الكشف لأن سببها
ينكشف لصاحبها بعد فوات إدراكه ولا يزال يعاوده ،

فالقرآن حسرة على الكافرين أي :

سبب حسرة عليهم في الدنيا والآخرة ،

فهو **حسرة عليهم في الدنيا** لأنه فضح ترهاتهم

ونقض عماد دينهم الباطل وكشف حقارة أصنامهم ،

وهو **حسرة عليهم في الآخرة** لأنهم يجدون مخالفته سبب عذابهم ،
ويقفون على اليقين بأن ما كان يدعوهم إليه

هو سبب النجاح لو اتبعوه لا سيما وقد رأوا حسن عاقبة الذين
صدقوا به .

والمكذبون : هم الكافرون .

وإنما عدل عن الإتيان بضميرهم إلى الاسم الظاهر

لأن الحسرة تعم المكذبين يومئذ والذين سيكفرون به من بعد .

(وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ) [الحاقة : ٥١]

والأصل أن الحق اسم لما يحمد عليه ،

فحقه أن تنظر في ما تستعمل هذه اللفظة

أي إن ذلك حق لا محالة أي هو جالب لحسرتهم في الدنيا والآخرة .

فتصرفها على أحد الوجوه :

فإذا استعملت في الأخبار أريد بها الصدق

نحو أن يقال : هذا خبر حق أي صدق .

وإذا استعملت في الحكم هذا حكم حق أريد بها العدل .

وإذا استعملت في الأقوال والأفعال أريد بها الإضافة .

فقوله تعالى : { وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ } أي صدق ويقين أنه من رب

العالمين .

فهو صلة قوله عز وجل { تنزيل من رب العالمين } [الآية ٤٣] .

{ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } .

في هذا نفي كل باطل من شعر أو كهانة أو غيرها ،

ولكل نقص أو زيادة .

وحق اليقين هو منتهى العلم ، إذ اليقين ثلاث درجات :

الأولى : علم اليقين . والثانية : عين اليقين . والثالثة : حق اليقين

كما في التكاثر { كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ }

[التكاثر : ٥ - ٧]

فهاتان درجتان ، والثالثة إذا دخلوها كان حق اليقين ،

ومثله في الدنيا العلم بوجود الكعبة (علم اليقين) والتوجه إليها في الصلاة ، ثم رؤيتها عين اليقين

ثم بالدخول فيها يكون حق اليقين

مثال آخر : وجود مكة مثلاً ، فمن لم يرها فقد حصل له بالإخبار علم اليقين ،

ومن رآها ، ولم يدخلها ، فقد حصل له عين اليقين ، ومن دخلها وعرف أماكنها وأزقتها ، فقد حصل له حق اليقين ، وكذلك شهود الحق تعالى

، فمن تحقق بوجوده من جهة الدليل فعنده علم اليقين ، ومن كشف له عن حس الكائنات، وشاهد أسرار الذات ، لكنه لم يتمكن من دوام شهودها ،

فعنده عين اليقين ، ومن تمكن من شهودها ورسخ في المعرفة ، فعنده حق اليقين

{ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } .

وبعد هذا التقرير في إثبات الوحي والنبوة أمر تعالى رسوله بعد أن كذب برسالته المكذبون أمره أن يستعين على الصبر بذكر الله تعالى فقال له { فسبح باسم ربك العظيم } .

أنه لما نزلت الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه اجعلوها في ركوعكم فكانت سنة مؤكدة سبحان ربي العظيم ثلاثاً في الركوع أو أكثر .

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) [الحاقة : ٥٢]

هذا التسبيح شكراً على ما جعلك أهلاً لإيحائه إليك ،

فالمخالف يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يسبح له تسبيح ثناء
وتعظيم شكراً له على ما أنعم به عليه
من نعمة الرسالة وإنزال هذا القرآن عليه .

فسبِّح باسم ربك : نزهة عما لا يليق به تعالى

وتنزيه الاسم الكريم ، تنزيه للذات العلية ،

فهو سبحانه وتعالى منزّه عن كل نقص ،

متصف بكل كمال ، مستحق للحمد والذكر والشكر على أنعمه ،

وعلى إنزاله القرآن العظيم مشتملاً على صنوف الهداية .

والحمد لله على هدايته لتجميع وتنسيق وتهذيب وتأويل سورة الحاقة